دروس على الخط في مقياس منهجية البحث الاجتماعي

I. المحاضرة التاسعة: جرد التراث النظري ورصد مجال البحث

إن الدراسات السابقة تعتبر بمثابة المفتاح الحقيقي لبناء أي دراسة بحثية ذات قيمه علمية ومنهجية وهي تشير إلى تلك الدراسات التي تناولت نفس المجال الخاص بالمشكلة التي يقوم الباحث بدراستها، بحيث تمثل بالنسبة للمشكلة المطروحة قاعدة معرفية أولية لها، وتمثل نتائج المشكلة المطروحة إضافات مباشرة إلى نتائج الدراسات السابقة، ولذلك تظهر أهميتها أكثر في تطوير المشكلة البحثية أو الفروض العلمية وصياغة الإطار النظري وتفسير حيثيات البحث ونتائجه [1]، وهي تحظى باهتمام كبير من الباحثين وتعمق أكبر في الرجوع إلى تفصيلاتها.

وقد تأتي القراءات الاستطلاعية على مرحلتين:[2]

- المرحلة الأولى: وتأتي قبل تحديد مشكلة البحث وصياغتها، ولتحديد مسار البحث وعلاقته بالبحوث الأخرى قبل الخوض فيه.

- المرحلة الثانية: فتتمثل بالاطلاع على الأدبيات والدراسات السابقة واتجاهات النتائج فيها من أجل مقارنتها بنتائج البحث العلمي.

ويمكن القول أن الباحث الجيد كلما استطاع الغوص أكثر في قراءاته الاستطلاعية واطلاعه ومراجعته للأدب النظري كلما استطاع تكوين فكرة عامة عن البحث الذي سيقوم بدراسته وتجنب الوقوع في الأخطاء التي سبق وأن وقع فيها الباحثون قبله، وفي معرفة الأفكار التي تم تناولها أو التركيز عليها فينجو هو في طرح آخر ويستبعد الغوص في نفس الطرح والتناول حتى يتسنى له تقديم إضافات وأفكار جديدة، كما توفر له الفرصة السانحة لاكتساب الخبرة حول صياغة الإشكالية والتقدم في المسعى البحثي بكل مراحله وخطواته ويرى 'أنول باتشيرجي' أن المراجعة الأدبية لمجال الاهتمام أو مراجعة الأعمال البحثية المنشورة السابقة تحقق ثلاث أغراض وهي:

1) مسح الحالة الراهنة والوقوف على المعرفة الخاصة بالمجال المطلوب.
2) تحديد الكتاب الرئيسي والمقالات والنظريات والاستكشافات في هذا المجال.
3) تحديث ثغرات المعرفة في هذا المجال البحثي.

أ. استعراض الأدبيات والقراءات:

بعد وضع التصور المبدئي حول الموضوع وتحديد متغيراته، وصياغة تساؤل مبدئي جيد وفق المواصفات الأساسية له (يمكن تعديله وتحويره أثناء وبعد الانتهاء من العمل الاستكشافي) وقبل الشروع في البحث وصياغة الإشكالية ينطلق الباحث في عملية البحث عن المعلومات التي يحتاجها، ويبدأ بالتنقل إلى مختلف المكتبات الممكنة وحتى المواقع الإلكترونية الخاصة بالبحث وبتحميل المراجع للحصول على قائمة أولية بالمصادر والمراجع والأعمال التي لها علاقة مباشرة أو غير مباشرة بالموضوع

ولن يتأتى له ذلك إلا بالقيام بالقراءات المعمقة واستعراض الدراسات السابقة وما توصل إليه الباحثون، وفهم وتلخيص تلك الأفكار وإدراكها لتساعده على البناء الأولي للإشكالية والتأصيل النظري للموضوع البحثي، وحتى تتم هذه العملية بنجاح لابد أن يكون الباحث ملما بقواعد الإفادة من مصادر المعلومات باختلاف أنواعها ويتعرف على قواعد تنظيمها بالمكتبات ومراكز المعلومات والمؤسسات المختلفة أو ما تسمى بعملية التوثيق'، وهي عبارة عن علم صناعة الكتب وفن سرد الإنتاج الفكري ووصفه وتسجيله، وهي تساعد في عملية اختيار مختلف المراجع والمصادر والتحقق من المعلومات من حيث مؤلفه، عنوانه وطباعته...إلخ ومعرفة ما نشر في بحثه وتأليفه سواء في بلده أو في سياقات اجتماعية أخرى وتعرف أيضا بعملية 'البيبليوغرافيا' وهي عملية لها أصولها وأسسها وأهدافها وطرقها وإجراءاتها الفنية والعملية وهي تسمح للباحث باسترجاع والحصول على مختلف تلك المراجع والمؤلفات بأسهل الطرق وبأقل وقت ممكن[3]، وخاصة إذا تعلق الأمر بأدوات البحث البيبليوغرافي أين يتعين على الباحث تحديد نوعية الأوعية الفكرية المتعلقة بموضوع بحثه، حتى يتسنى له هيكلة ووصف مختلف مصادر معلومات وتحديد نوعيه الوثيقة بالضبط.

ونظرا أن الباحث يطارده شبح الوقت غير الكافي وخاصة في حالة إعداد مذكرات التخرج (ليسانس أو ماستر) فلن يكون قادرا على قراءة الكثير من المراجع ولن يستطيع الوصول إلى كل المراجع التي قد يجد فيها المعلومات الكافية والوافية لإنجاز بحثه، كما أن القراءات الفوضوية والشرهة والسريعة قد تستغرق منه وقتا طويلا دونما الوصول إلى المعلومات التي سيوظفها في البحث. وفي المقابل يتعين أن يخصص لهذه القراءات كل العناية والاهتمام اللازمين لاستمرار بحثه وجعله يستجيب لمعايير العمل العلمي المقبول من خلال دعمه مفاهيميا بإبعاده عن الأحكام القيمية والأفكار المسبقة،

وعمليا يجعل عملية التحليل والتعليق مستندة إلى دعائم علمية تزيد من تثمين عملية البحث[4].

وحتى يستطيع أن يوازن بين شبح الوقت وإمكانية الوصول والحصول والولوج إلى كل المراجع ومصادر المعلومات يتعين عليه عمليا اختيار دقيق لعدد من المراجع بطريقة منظمة حتى يستطيع ضبط موضوع بحثه وتدقيقه. أن المسألة هنا لا تتعلق بعدد الوثائق وبطابعها الكمي بقدر ما تتعلق بنوعيتها ووعي الباحث وفطرته ومهارته وذكائه وتنظيمه، وتوضيح معالم الموضوع وتدقيق جوانبه ونوعية وطريقة القراءة المعتمدة.

وقد اقترح 'ميشال بو' الاعتماد على:[5]

أ) طريقة صعود الشبكات البيبليوغرافية: أو طريقة البحث المنتظم في فعملية الانتقائية للوثائق ليست عشوائية وإنما تكون بدلالة أهداف البحث وخطته، ويلجأ إليها الباحث لاستحالة استعراض كل ما كتب حول الموضوع، فيبدأ في وضع قائمة لحد معين من الأعمال المرجعية التي تناولت موضوع البحث والتركيز عليها قصد استغلالها أكبر قدر ممكن وإلى أقصى حد ممكن، وكما قلنا فإن الكثير من الكتابات تتشابه في الطرح إلى حد معين، ولتجنب التكرار الوارد يحاول الباحث بمهاراته وفطنته إيجاد نوع من التكامل بينها.

ب) مقياس التدرج في الأهمية: وفي هذه العملية ينطلق الباحث من المؤلفات والمقالات والدراسات الحديثة والمركزية في البحث ويختار الباحث المراجع والمصادر الأساسية والتي لا يمكن الاستغناء عنها لاحتوائها على عناصر التحليل والتفسير وليس مجرد عرض للمعطيات معينة، وتحديد موضوعه بواسطة حقولات معرفية مستمدة من الرصيد المعرفي للباحث وما تم جمعه، ومرتكزة على التصورات النظرية لميدان تخصصه

ج) ويقترح 'موريس أنجرس' تحضير قائمة بالمفردات الأساسية واستعمال الكتب المرجعية، أو الاطلاع على فهرس الدوريات، والفهرس العام، أو أي مصادر أخرى حتى تتم عملية استعراض الأدبيات بصفة جيدة وتتحقق الاستفادة من ذلك ويتمكن الباحث من إثراء موضوع بحثه بشكل فعال، ووضع قائمة في الوثائق التي لها علاقة بموضوع بحثه، مع تحديد الوثائق التي لابد من قراءتها عن طريق عملية التعيين، ووضع العناصر المستنتجة من القراءات والاحتفاظ بها في البطاقات البيبليوغرافية

(fiche bibliographique) في إطار منظم يسمح للباحث بتوفير الوقت والجهد ذهابا وإيابا لمصادر المراجع أو الأدبيات المتصلة بموضوع بحثه في كل مرة[6]، لأن البطاقة البيبليوغرافية تسهل على الباحث الرجوع إليها وإلى المرجع المطلوب كلما اقتضت الحاجة إلى ذلك.

وما تجدر الإشارة إليه أن ما يقال عن المراجع الورقية يقال أيضا عن المراجع الإلكترونية والبحث المحوسب الذي سهل عملية البحث عن الفهارس والمعلومات بالاتصال المباشر بين المكتبات ونظم شبكه المعلومات، والاتصال المباشر بالقواعد البيبليوغرافية التي لديها، مما يمكنه من إنشاء تسجيلات ببليوغرافية بكم هائل من أوعية المعلومات واستخدامها في بناء قواعد بيانات بيبليوغرافية هائلة توفر إمكانية استرجاع البيانات والمعلومات البيبليوغرافية عن طريق البحث المباشر ومن خلال استغلال شبكة الأنترنت، وتوفير تلك البيانات والوثائق بشكل يمكن قراءتها ومعالجتها في عملية البحث والاسترجاع.

1. المرحلة الاستطلاعية (الميدانية):

إن الدراسة الاستطلاعية (الميدانية) هي مرحلة مكملة ومدعمة للقراءات والبحوث البيبليوغرافية(مع العلم أنه لا يوجد تدرج بينهما أو أنهما تتمان على مرحلتين مختلفتين، بل يمكن لهما أن تكونا في نفس الوقت)، حيث يتم تنظيم زيارات إلى ميدان الدراسة، للتعرف على الموضوع أكثر والإلمام بحيثياته والتأقلم معه ومعرفة بعض جوانبه التي قد لا تظهر من خلال القراءات ومحاولة إيجاد السبل الفكرية لتدقيق المشكلة وضبط الموضوع أكثر، كما تسمح بالتوجه فعلا نحو بناء عناصر الإشكالية وبناء الفرضيات بشكل مقبول ومعقول وواقعي، وتوفر الوعي بالعقبات والصعوبات التي قد يواجهها الباحث وتعيق مسعاه وبالتالي محاولة وضع الباحث لاستراتيجية جيدة للدراسة الميدانية، بالإضافة إلى ذلك فهي تساعده على تحديد مفاهيم الدراسة والاتصال بها من المجال النظري للبحث إلى المجال الواقعي الموضوعي ومن ثم تحديد جهاز مفاهيمي معقول، كما تمكن من تحديد مجتمع الدراسة أو عينة البحث، وتساعد على تحديد منهج وأدوات الدراسة المناسبة، وبذلك تكون الجولة الاستطلاعية بمثابة عامل وعي واقعي لدى الباحث على العناصر المساعدة والمعمقة التي تحيط بالظاهرة موضوع البحث.[7]إذن فهناك أهمية كبيرة للجولة الاستطلاعية فهي مكملة ومدعمة ومثرية لمرحلة القراءة كونها تضع الباحث على محك الواقعية والقابلية للإنجاز وأهم أدواتها المقابلات الاستكشافية والملاحظة.

أ. المقابلات الاستكشافية(الاستطلاعية):

إن الوظيفة الأساسية للمقابلة الاستطلاعية هي تسليط الضوء على بعض جوانب الظاهرة المدروسة التي لم يفكر فيها الباحث ولم تكشفها القراءات والهدف من المقابلة هو طرح الإشكالية وصياغة الفرضيات وليست التحقق منها، فالمقابلة الاستطلاعية أو الاستكشافية لها بعد كشفي فهي لا تهدف كما قلنا إلى التحقق من الفرضيات بل من أجل بناء النموذج التحليلي والتوصل إلى صياغة فرضيات البحث، وحتى يستغل الباحث هذه المقابلة الاستكشافية أحسن استغلال عليه التعامل معها بمرونة حيث تُدار بشكل مفتوح ومرن، وطبعا مع تجنب طرح أسئلة كثيرة ودقيقة للغاية، حتى يتمكن الباحث من الحصول على أكبر قدر من المعلومات التي قد يغفل عنها في المحطات السابقة أو قد يجد معلومات جديدة لم تكن في الحسبان، تدعم المسالك الفكرية للباحث، ومن المهم أن يكون هناك تنظيم للمقابلة الاستكشافية من قبل الباحث وأن يكون مزودا بدليل المقابلة أو شبكة المقابلة التي تحتوي جملة من الأسئلة التي يرغب الباحث في إثارتها من خلال هذه الدراسة الاستطلاعية وأهدافها.

ولكي يتم استغـلال هذه المقابلات الاستطلاعيـة (أو الاستكشافية) استـغـلالا جيدا ينبغي مراعاة بعض الشروط وأهمها:[8 9]

- مع من يفيـد إجراء المقابلـة.
- ما هي مقـــومات المقابلات وكيف نجريها.
- كيـف نستغـلها حيث تتيح قطعا حقيقيا مع الأحكـام والأفكار المسبقة وأوهام الثقـافـية.

ب. الملاحظة الاستكشافية:

وهي تسمح بجمع المعلومات والبيانات من الميدان، وهي تساعد الباحث أيضا على ضبط مشكلته البحثية وتدقيقها، وذلك من خلال ملاحظة والحديث مع بعض الأشخاص وملاحظة ضروب السلوك المختلفة.

وهي إنما لا تعدو أكثر من وسيلة مبدئية للاطلاع على معالم ميدان الدراسة لتوطيد الاطمئنان العلمي لدى الباحث. وتتم عبر مراحل:

- التفاعل الاجتماعي مع الوسط الذي نريد دراسته.
- القيام بعملية الملاحظة.
- تسجيل الملاحظات.

ومن المعـــروف أنه لا توجـد طريقــة ثابتة للقيـــام بالملاحـظة لتفـقد الواقـــع الاجـتماعي، وعلى الباحث الاجـتماعي أن يأخـذ بعين الاعتبار خطـــوات الظاهـرة، وتموقعه في الوسط، وكيف يتصرف كيف يصل إلى مستوى من الثقة المتبادلة(القبول).

وتجدر الإشارة فقط إلى أن الملاحظة في الدراسة الاستطلاعية لا تكون مزودة بدليل الملاحظة، فهي فقط من أجـــل الحصول على البيانات التي تساعـد في تدقيـق المشكـلة لا أكـثر[10].

وقد أثبتت هذه التقنية جدارتها في البحوث الاجتماعية وهي تتطلب من الباحث عدم الاكتفاء بعرضها عرض وصفيا أدبيا بل لابد من التمرن عليها لأهميتها في الحصول على بيانات ومعطيات تدقق أكثر من مشكلة البحث وتدعم مرحلة استعراض الأدبيات والقراءات في فتح آفاق عملية في المسعى المنهجي للبحث